رويداً – فإن الدهر مازال صرفه ... يدور – وإن الملك ليس بدائم

ويا رمم القتلى بكل تنوفة ... ويا لهب النيران بين العواصم

ويا دارس الأطلال في كل دمنة ... ويا ماثل الآثار بين المعالم

ويا موج (بحر الروم) في كل ساحة ... ويا خفقات الريح بين العوالم

ففي حدثي التاريخ عن مدنية ... يشارك فيها الوحش أبناء آدم

الديار المصرية // فؤاد الخطيب

تذكرة ابن العديم

ابن العديم هو عمر بن كمال الدين العقيلي الحلبي رئيس الشام المتوفى سنة ٦٦٦ كان محدثاً فاضلاً حافظاً مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتياً منشئاً بليغاً كاتباً محموداً درس وأفتى وصنف وترسل عن الملوك وكان رأساً في الخط المنسوب لاسيما النسخ والواشي وله التصانيف الرائقة منها تاريخ حلب أدركته المنية قبل إكمال تبييضه وله كتاب الدراري في ذكر الذراري صنفه للملك الظاهر غازي وقدمه له يوم ولد ولده الملك العزيز وكتاب الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة وكتاب في الخط وعلومه وآدابه ووصف ضروبه وأقلامه وكتاب رفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري وكتاب تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد. قال ياقوت: وكان إذا سافر يركب في محفة تشيله بين بغلين ويجلس فيها ويكتب. وقد رحل إلى العراق ومصر والحجاز وتولى من أجداده خمسة قضاء القضاة في حلب على التوالي ومن شعره.

فوا عجبا من ريقه وهو طاهر ... حلال وقد أضحى على محرما

هو الخمر لكن أين للخمر طعمه ... ولذته مع أنني لم أذقهما

ولابن العديم شعر مستملح ونثر عذب ومن كتبه التي أبقتها الأيام كتاب التذكرة دخل دار الخديوية بالقاهرة جزء منه في بضعة أجزاء أولها الجزء الخامس وآخرها الجزء السادس عشر في ٢٠٥ ورقات صغرى أولها:

جفني بجفنك قد جفاه هجوعه ... والقلب واصله عليك ولوعه

وسقام جسمي فيك عز ذهابه ... والنوم عز على الجفون رجوعه

ومما جاء فيها:

أنشدني منجب الدين ابن الأمان المذكور قال أنشدني القاضي وجيه الدين ميلف ابن الصنديد الشيزري قال أنشدني للأمير شرف الدولة ابن المنقذ نفسه وكانت الزلزلة قد خربت شيزر اثنين وخمسين وخمسمائة وسقطت القلعة على أخيه وأولاده وزوجته الخاتون أخت شمس الملوك فسلمت دونهم ونبشت من الردم فجاء نور الدين محمود بن زنكي إلى شيزر وتسلمها وطلب من زوجة أخيه أن تعلمه بالحال وقددها فقالت له أن الردم سقط عليها وعليهم ونبشت سالمة دونهم ولا تعلم بشيء وان كان لهم شيء فهو تحت الردم وكان شرف الدولة غائباً فلما حضر ورأى شيزر وما حل بها وعاين زوجة أخيه بعد العز في ذلك الذل عمل:

ليس الصباح من المساء بمثل ... فأقول لليل الطويل ألا انجلي

شلت يد الأيام أن قسيها ... ما أرسلت سهماً فأخطأ مقتلي

لي كل يوم كربة من نكبة ... يهمي لها جفني وقلبي يصطلي

يا تاج دولة هاشم بل يا أبا ... التيجان بل يا قصد كل مؤمل

لو عاينت عيناك قلعة شيزر ... والستر دون نسائها لم يسدل

لرأيت حصناً هائل المرأى غداً ... متهيلاً مثل الثقا المتهيل

لا تهنئي فيه السعادة لملك ... فكأنما تسري بقاع مهول

ومنها يشير إلى زوجة أخيه المذكورة:

نزلت عَلَى رغم الزمان ولوحت ... بمناك قائم سيفها لم ينزل

فتبدلت عن كبرها بتواضع ... وتعوضت من عزها بتذلل

فما وأنا أخوك مقال جا (؟) محصلاً ... سبلاً وأزمع وهو غير محصل

ودفنت بين ثلاثة ضاجعتهم ... كالليث ضاجعه ثلاثة أشبل

وقال قاضي القضاة كمال الدين ابن العديم في المجلد الثني:

نقلت من خط أبي عمرو الطرطوسي لأبي القاسم الحسن بن الحسين التميمي الواساني يمدح الأمير أبا الفضل سعيد بن شريف بن سيف الدولة بن حمدان ويسأله في رد حمامه وداره وكانتا مقبوضتين مقتطعتين لبعض الجند:

لو كنت أمدح للجدا ... لشرعت في بحر الندا

وأقمت بالتأميل مولا ... نا الأمير السيدا

أولى الملوك بأن ينا ... ط به الرجاء ويقصدا

وأحق أن يهب الطري ... ف لسائل والمتلدا

داري وحمامي أق ... ل لديك من أن يوجدا

فهما الغداة كقطرة ... مدت خليجاً مزبدا

فوعده أبو الفضائل بإطلاقهما فكتب إليه يتنجز توقيعاً بذلك:

يا أيها الملك الجليل ... ظني بك الحسن الجميل

ولعبدك المسكين في ... حمامه خطب جليل

مالي إليه بغير تو ... قيع أرواح به سبيل

فأمن بتوقيع به ... يأمن له الجد الأثيل

فأطلق له ذلك وسلمه إليه فقال يشكره لما تسلم ذلك:

أيها السيد استمع قول عبدك ... لم يشبه بالزور والبهتان
بل هو الحق اشهد الله والنا ... س وآتي عليه بالبرهان
أتت والله فهي بالغة الإ ... يمان أهل لليمن والإيمان
وحقيق بأن يبلغك الل ... هـ برغم العداء أقصى الأماني
يا أمير القلوب قاد هواها ... واشتراها بأوفر الأثمان
فهي تعنو له وتمحضه النص ... ح بلا ريبة ولا أدهان
ذاك أن القلوب تملك بالإحسان والخوف مالك الأبدان
لا يرى أن يقول لا أبداً ... لفظا بها أو إشارة ببيان
وكريم المزاح إن حضر الزا ... د لبسط الإكليل والندمان
أقرب القوم منه من جاء للحا ... جة غرثان عند وضع الخوان
وحفي بفتية ليس منهم ... غير ماض العزيم ثبت الجنان
ووفي بعهده طاهر القل ... ب جدود في نصحه غيروان
دهره بين نثره وحسام ... وجواد ذي ميعة رسنان
غير صاغ إلى سماع أغان ... مطربات ولا كعاب أغان
فهو وانجد مثل طرفي رهان ... أو شقيقين ارضعا بلبان
ما تكنى أبا الفضل حتى ... فضل الناس بين قاص ودان
وتسمى باسم السعادة والأس ... ماء موصولة العرى بالمعاني
هو والله مشتري فلك أصبح باليمن دائم الدوران
سار في برجه فأطفأ بالسعد نحوس المريخ والدبران
طرف الله عين عداه وإن ساء عدوا ما قلت عين الزمان
وكفانا فيه الملمات ما صوب نجم أو لاح برق يمان

فوحق الأنعام والكهف والطو ... ر وطه وسورة الرحمن
لو تركنا نختار بين الأماني وضعنا وهن بالأرسان
ما بلغنا في الحدس والظن مع ... شار سرور نراه رأي الأعيان
يا كريماً آباؤه أمراء الع ... رب والعجم من بني ساسان
أل حمدان سادة الناس مذ كا ... نوا قديماً في سالف الأزمان
وأحق الملوك بالفخر من أضح ... ى أميراً على بني حمدان
سيد يشتري الثناء ويخشى الل ... ـه في سره وفي الإعلان
فلأنت الأحق قد علم الل ... ـه بأن تصطفى لهذا المكان
باتفاق من سائر الناس من ح ... بي معد معاً ومن قحطان
نحن ما دمت آخذاً بزمام الملك من ريب دهرنا في أمان
لا يخاف البريء منا ولا ... ييأس جان من رأفة وامتنان
أحمد الله يا سعيد على أنك كهفي من كل إنس وجان
وعلى أنني بجودك في ظ ... ل من العيش ناضر فينان
وقد تحيرت والمهيمن في شكرك مالي بما بديت يدان
أي شيء يجز بك عني ومالي ... غير ودي وغير شكر لساني
وهما يقصران عنه ولو كنت كقس في النطق أو سبحان
غير أني قد بعت نفسي ... مولانا وإن لم أساو ما أولاني
فخذ الآن عهدتي وارض من عبدك ما يستطيعه إمكاني
لأكون امرءاً تقصيت جهدي في جزاء الإحسان بالإحسان

للسابق أبي اليمن محمد بن خضر المعري :

حلب معهد الصبا والصابي ... فسقاها الوسمي ثم الوالي

موطني بعد موطني فكأني ... لغرامي بحبها البحتري

فلديها كل الفنون وفيها ... ما اشتهاه الشرعي والفلسفي

غير إني أرى الأطايب شرزاً ... وحليف الإفلاس عنها قصي

وقال في عبد الودود النحوي :

كشف رأس النحوي غير عجيب ... هل رأى الناس أيلا بعمامه

هو صدر إن كان زهداً وعلماً ... قصر الثوب وانكشاف إلمامه

ودعوه فالعذر فيما أتاه ... ليس يخفى وظالم من لامه

لو تخلى من اختال لأمسى ... بيته في خلو أطلاله رام

طالما جاع في الزمان محق ... مثل ما ضاع زاهد علامه

وكتب إلى بعض الرؤساء يشكو رجلاً يقال له ابن العقيدة من أهل حلب :

العبد يشكو علة في جسمه ... واليك يشكو علة في حاله

وابن العقيدة في الإساءة زائد ... لا ينتهي عن لومه وسفاله

بك أبيها الكافي الأمير أعوذ من ... وغد أصر على قبيح فعاله

الخادم على صورة لا يمكنه منها المثول بالحضرة السامية وشكوى ما استمر عليه من سوء معاملة هذا الوغد المذكور والله لولا الحياء وإنه ممن لا يخفضه المجاء لكويته بميسم يشقى لناره ويبقى على الأعقاب إثر شناره ولكن طليق عرضه اللئيم وفي ذمة مقداره الذميم والرأي للحضرة في زجره عما هو عليه وأمره بما يعود لمصلحة الخادم علوه إن شاء الله تعالى.

وكتب إلى إنسان صانع عمل له شيئاً فيسر إليه أجرته واعتذر :

خذ ما تيسر يا أبا منصور ... واعذر فقد أسرفت في التقصير

ومع الثناء فما تضيع صنيعة ... عندي لرب صناعة وأمين

الدراهم المراهم أطال الله بقاء مولاي.

فأما صناعته فتجل عن الورق والعين ولا تقابل بالكثير من هذين النوعين ورأيه في قبول ما تبعث به والرجوع في ذلك إلى كرم أخلاقه ومنصبه الموفق إنشاء الله هـ.

وقال: كتب لي كمال الدين القاسم بن القاسم الواسطي يطلب تبناً.

مازلت تحفر قبراً ... ونحن نطلب تبناً

وللكرام تشاد الـ ... عُلى وبالحمد تبنا

وقد رميناها سهماً ... من المديح وصبنا

فاستقي الثرى الجعد يا غيث كل جدب وصبنا

ففي كمالك داع ... دعا بنا فأجبنا

وأنشدني عز الدين عبد العزيز بن سالم بن محمد الحراني :

لو كنت تعلم كل ما علم الورى ... طراً لكنت صديق كل العالم

لكن جهلت فصرت تحسب أن من ... يهوى خلاف هواك ليس بعالم

فاستحي أن الحق أصبح ظاهراً ... عما تقول وأنت شبه النائم

هذه نموذجات من هذه التذكرة فيها المتع النافع ويا حبذا لو صحت عزيمة أحد علماء مصر بنشر الموجود منها لأنها أثر نفيس خصوصاً وهي مكتوبة بخط صاحبها وفيها من الأشعار والأخبار ما يلذ ويفيد.

حب الوطن

خطب ارنست لافيس من مشاهير علماء الاجتماع والتاريخ واحد أعضاء المجمع العلمي الفرنساوي في إحدى المدارس الفرنساوية خطبة في حقيق الوطن قال فيها:

الوطن أرض يترلها أناس يخضعون لنظام واحد. ولقد صرفت العناية الكبرى لتأليف مثل هؤلاء الجماعة وتحديد مثل هذه الأرض. حتى أنك لترى الأقاليم المتنائية التي هي

اليوم خاضعة لسلطان واحد تكاد تكون متحدة في ميولها ورغائبها بعد أن كانت من قبل مشتتة. جاء زمن كان فيه إقليم بيكارديا (من أعمال فرنسا) أبعد عن إقليم برتانيا وإقليم برفانس (فرنسا) مما ترى عليه اليوم فرنسا بعيدة عن أميركا والهند. ولطالما عملت الطبيعة ثم السياسة ثم الحديد ثم النار ثم العقل والقلب قروناً عديدة حتى هيأت لنا هذه الأرض التي نسكنها والسماء التي تظلنا.

علمكم التاريخ كيف عمل ملوكنا لتأليف أجزاء المملكة الفرنسوية فضموا أشتات ولاياتها واحدة بعد أخرى فكانت أول صلة ربطت إقليم بيكارديا بإقليم برتيانيا وإقليم غاسكونيا بإقليم بروفنسيا وغيرها. إنها خضعت لملك واحد فأصبح آباؤنا بأسرهم فرنسويين لأنهم صاروا كلهم رعايا ملك فرنسا فكان بذلك أول اجتماع وطني وهو اتحاد الجميع في الطاعة لملك واحد. فاهتم الشعب لما يصدر عن الملك من الأعمال وراح أجدادنا يتحدون يداً واحدة في الأعمال الحربية فقدموا لذلك مالهم ومهم فكان إذا كتب النصر لملك الفرنسيس تغتبط الأمة بأسرها وتسر وإذا نكست أعلامه تبتئس وتكتئب. وتأصلت العادة في النفوس بأن تضطرب لأمر واحد في ساعة واحدة فنشأ في ذلك في بلادنا شعور وطني.

ثم تجلت مظاهر الاجتماع بما أنتجته العقول من الأعمال فأحدثت الأمة الفرنسوية لغتها. فإن كنا اليوم نتكلم بلغة هي من أجمل لغات العالم فذلك لأن أجدادنا قد بذلوا كل نفس ونفيس قروناً عديدة حتى يجعلوها في هذا الجمال والقبول. فعلم الأدب هو بمنزلة الاعتراف العام في أمة تودعه تصوراتها في الوجود وتصوراتها في الإنسان. وكانت الآداب الفرنساوية ترجماناً عبر فكر فرنسا وأخلاقها الخاصة بها وجعل من الجماعة التي ضمت السياسة شملهم جماعة ربطت بينهم الأخلاق.

مضى زمن طويل كانت فيه فرنسا متفقة مع مليكها في الأفكار وذلك لاعتقاد الفرنسيس أن الملك كان نائب الله تعالى عَلَى الأرض يجب حبه وخدمته كما يحب المولى ويطاع.

أيها الجمهوريون الصغار إنه يصعب عليكم قليلاً أن تدركوا هذا الشعور. ولكل زمن أخلاقه والمتأخر قد لا يعي حال المتقدم. ومن الضلال أن لا يعترف أن هذه الأخلاق كانت فيما سلف مستحكمة شائعة كما أن من الضلال أن يحاول بعضهم إحياءها بعد أن ماتت واضمحلت.

جاء يوم عَلَى فرنسا استشاطت فيه غضباً من مليكها لأنه كان يحب الخصام فتصلب في رأيه واشتد في عناده وفي معاملتها ولكن صبر أجدادنا كان غريباً في شكله طويل النفس من وراء الغاية. فكانت الأمة تقاسي ضروباً من سوء الاستعمال من عدم التساوي وقلة العدل والظلم المطبق. ولم تلبث أن أقامت الحجة ولكن كلمتها ذهبت كصرخة في واد ثم رفعت صوتها بالشكوى أعلى من ذي قبل وأخذت تتناغى بالحرية والعدل والإنسانية فكان من ذلك الثورة فسقط مع الملك طبقات الأشراف وزالت امتيازاتهم وكان لهم من قبل حقوق خاصة بين ظهراني الأمة فاشترك جميع الفرنسويين عَلَى السواء في الوطن الذي اتحدت كلمته وتماسكت أجزاؤه وطفقت فرنسا تتحاب مباشرة وأحبت فوق حبها لنفسها ما تناغت به من العدل والحرية والإنسانية ولذلك حق لها أن يحب أبناءها أنفسهم كما أحبوا بلادهم حباً مازج اللحم والدم. فوطنيتنا الثورية كانت من أجمل العواطف التي عرفها التاريخ.

أيها الأولاد: ليس وطننا أرضاً فقط بل هو عمل إنساني بدئ به منذ قرون ونحن نكمله وأنتم تتناوبون العمل بعدنا. إن ما قام به أجدادنا منذ الأصل وذكرى أعمالهم وأفكارهم وحركات عقولهم ولغتنا وفكرنا وكيفية فهمنا معنى الحياة مع ما خصت به

أرضنا من الخصب والأمراع وما تجود به علينا سماؤنا من الحسن والإحسان وما عرفت به أصقاعنا من المناظر المبهجة وبلادنا الشمالية من الضباب المتكاثف والجنوبية من الصحو الممتع وبحارنا الخضراء وبحرنا الأزرق – كلها إرثنا العزيز هي وطننا ابنة الطبيعة وابنة الفكر.

ولكن وطنكم ليس وحيداً بين الأوطان في هذا العالم. هناك أوطان كثيرة تحيط بكم تألفت على غير الصورة التي تألف بها وطنكم كألمانيا وإيطاليا التي كان نشؤهما بطيئاً وكإنكلترا التي كان نشؤها سريعاً. هذه الأوطان قننت قوانينها وأنشأت لغاتها وآدابها وكل منها قد أبانت عن أفكارها وعواطفها في الطبيعة والإنسانية كما ابنا نحن. ولكل منها أفكارها التي تخالف أفكارنا ونبوغها الذي لا ينطبق مع نبوغنا وكل من تلك الأوطان يحبه أبناؤه كما تحب فرنسا أبناءها.

ماذا يجب أن تكون عليه عواطف تلك الأوطان وسلوكها بعضها مع بعض؟ هذه مسألة هي الآن مما يشغل الأذهان ويهيجها وتنقسم في تصورها الأفكار. فقد كان الشعور الذي تشعر به كل منها مدة قرون هو البغض والسلوك الذي تسلكه هو الالتجاء إلى الحرب. والظاهر أنه لم يكن يتأتى للمرء أن يحب وطنه بدون أن يكره وطن غيره.

وظاهر أن الحرب لم يكن يتيسر اتقاؤها في زمان كانت فيه التخوم غير مستقيمة على حال واحدة بين الممالك لأن هذه لم تكن بعد تألفت وعرفت لها كياناً. ولطالما كانت الحرب حادثاً يدعو إلى نماء الوطن وعملاً يؤدي إلى تحديد تخومها. وهكذا ربيت فينا غريزة الشدة المغروسة فكانت من موجبات بقاء تلك الممالك وذلك لأن الإنسانية ليست طبيعية في الناس وأصبحت الحرب من وظائف الحكومة فيولد الملوك زعماء

حرب والناس ضاطهم ومن كان أدنى طبقة منهم يختارون الدخول في الحرب ليرزقوا منها ويحترفوا بها.

ولطالما كانت الجيوش تقف على قدم الدفاع أبداً وتنشب الحرب لاستخدام تلك الجيوش وتمرينها. وتتجلى أعوام السلام كأنها أعوام فارغة على أن تلك الأعوام الخالية كانت قليلة. ومن جملة الدواعي التي تدعو المحاربين إلى إهراق الدماء قديماً كنت ترى المصلحة السياسية والكبر والتشهي والعادة هي الفاعل الأكبر فيها. وكان ذلك من الأدوار الهائلة في تاريخ الإنسانية ونحن نعده اليوم من آثار البربرية وعلائم التوحش.

وخطب المشار إليه في إحدى المدارس وقال:

إذا سئلتم لماذا يدرس لكم أساتذتكم النحو والحساب تجيبون للحال: ليعلمونا التكلم والحساب وهما أمران ظاهرة ضرورتهما. وإذا سئلتم لماذا يعلموكم تقويم البلدان تبادرون بالجواب في الحال فتقولون حتى نعرف فرنسا بلادنا ونتصور الأرض التي هي بلاد البشر. ولكن ربما ارتبكتم إذا سئلتم فائدة دراسة التاريخ.

ابن الربعين في السنة التي أنتم فيها يبدو كأنه شيخ هرم منذ مائة سنة أو مائتين أو ثلثمائة أو أكثر. ولا شك أنكم تنكرونه ولا علاقة لكم بهم وإذا كانوا هم آمنين مطمئنين في موتهم فعليهم أن يتركوا صغار الأحياء آمنين بدلاً من أن يملؤوا دروس أسمائهم وقائمة أسمائهم بحركاتهم وسكناتهم وبأرقام تواريخهم وأزمانهم.

ولكنكم أيها الأبناء مخدوعون باعتقادكم بأن الماضي بعيد. هو قريب منا ومجاور لنا وهاءنذ أبينه لكم في بضع كلمات: ولد لويس الرابع عشر سنة ٦٣٨ أي منذ ٢٦٠ سنة وأنا الذي لم أبلغ سن الحرم بعد عرفت في نوفيون رجلاً أدرك المعاصرين للويس الرابع عشر.

ويدعى هذا الرجل كؤول وكثيرون ممن جلسوا الآن على هذه المقاعد يذكرون ألوما إليه فقد مات سنة ١٨٥٦ في التسعين من عمره كما تشاهدون ذلك مزبوراً على شاهد قبره المصنوعة من الرخام الأبيض. وكانت سني إذ ذاك أربع عشرة سنة وكنت أراه كل يوم إلا قليلاً وكان خال خالي الكبير شهد أموراً هائلة مدهشة فرأى لويس السادس عشر يرفع على المشنقة دستور فرنسا القديم يمزق كل ممزق وفرنسا مولعة بحياة خيالية جديدة. فأخذ يوحي بروح القرن الثامن عشر الذي تعلمت منذ ذاك أن أحبه في أوهامه وخيالاته لأنه كان قرناً في الشقاء والبربرية وتلاد قرن من الهناء والإنسانية.

فالمسيو كؤول ولد إذاً سنة في سنة ١٧٦٦ وبلغ سنة ١٧٧٦ سن الرشد. وفي ذلك الزمن لقي ولا شك بعض أناس من أبناء الثمانين في نوفيون. وعليه فالرجل الذي كان في سن الثمانين سنة ١٧٧٦ قد ولد سنة ١٦٩٦ وكان في سنة البلوغ عندما قضى لويس الرابع عشر نحبه سنة ١٧١٥. وبهذا فأنتم ترون أن هذا الملك الذي يتراءى لكم أنه بعيد العهد جداً قد مستموه بأيديكم إلا قليلاً.

إن المائة والتسعة والثمانين عاماً التي مرت بين موته وبينكم هذه مدة قصيرة من الزمن ينبغي لها ثلاثة رجال وأنا الذي أخاطبكم وخالي وذاك الرجل الثمانين إذا مسك أحد بيد صاحبه نصل إلى هذا العهد وعلى هذا فليس من حاجة إلى سلسلة طويلة من الرجال لبلوغ الزمن الذي جاء فيه المسيح إلى العالم بل يكفي ثلاثون رجلاً.

لعد بضع سنين ترون يا أولادي متى انقضت ألوف من القرون أن الإنسانية تتكلم عن الأزمان القديمة. أما الآن فإننا لا نستطيع أن نقول عن رجل مات منذ أمد بعيد جداً فلا حق لكم إذاً أن تحيدوا عن الماضي كما تحيدون عن أمر بعيد جداً وإذ كان

قريباً منا كثيراً لا يجب أن يتطلع أحدكم لئلا يحمل على النظر فيه قليلاً. إن هذا التطلع إذاً ينفعكم وبه تطيلون حياتكم أن تضيفوا أزمنة إلى زمانكم كأنكم عشتم فيها. نحن قلما تنعم في حياتنا القصيرة ولذلك نحلم بخلود روحنا. أما التاريخ فيه ضروب من الخلود وراء حجب الماضي ويظهر لي أني بصرف حياتي في دراسته قد بلغت الآن من العمر على الأقل خمسة أو ستة آلاف سنة. وأنا أتنزه في فضاء واسع طافح بالأنوار والظلمات والحركات وأتنفس برئتين واسعتين.

بيد أن معرفة التاريخ شيئاً غير هذا وأحسن منه في الأثر فالتاريخ هو الفراق العظيم بين الإنسان والحيوان. فالكلب يجهل ما بذل من العناية الطويلة. وما اثر فيه نوع التربية حتى صار كلب صيد أو كلب راع. فهو لا يتمثل أمامه تاريخ جنسه من الكلب الأول جده الأعلى إلى أيامنا هذه. والرجل الذي لا يصعد إلى طبقة أجداده وهم في مغاورهم الأولية ليراهم حيث كانوا يأتون بالصيد ويمتصون نخاع العظام المكسرة بقدوم من الحجر هو كلب وزيادة. هو لا يتبع آثاره الإنسانية إلى الدرجة التي بلغناها من المقام الإنساني. والإحساس الظاهر من تكريم الإنسانية لا يقتبس من غير التاريخ.

معرفة التاريخ توضح سبيل محبة الوطن. والوطن مكان الإنسانية الذي ولدنا فيه ويمتاز عن سائر الأوطان بالطبيعة بل بالتاريخ أي بمجموع أعمال وأفكار متتابعة تألف منها ما قدر لنا من سعادة وشقاء. فعليكم ألا تجهلوا كيف أصبحت فرنسا من أعظم الأمم – ولا يكفي لأن يكون المرء فرنسوياً أن يولد في فرنسا كما هو شأن أشجار الحور والصفصاف عندنا بل إن التاريخ هو الذي يطلعنا على ما قام به أسلافنا ويعلمنا ما يقتضي علينا القيام به.

فمن السهل أن يميز العمل الذي تم في خلال القرون الأخيرة. إن هذا المعاصر للويس الرابع عشر الذي ذكرته لكم منذ حين كان رعية للملك كان يعتقد نفسه – بل وكان بالفعل – سيد رعاياه ومالك أرواحهم وأشباحهم فأبادهم بحربه وبما أنفق على قصوره وأعياده وأفراحه وتركهم يعذبون في ظل إدارة ممقوتة كره العقول على الإغضاء عن أفكارها واضطهد الوجدانات وحبس وشرد ملأ سجون بالرجال والمطابق المؤبدة على أنه لم يكن رديئاً كما لم يكن غبياً لأنه كان على جانب من الذكاء. ولم يكن ساقطاً لأنه كان محتشماً في سره وعلى شيء من العدل. ولكن الزمن إذ ذاك كان يبيح تلك الأخلاق. وكان كل ما يأتيه الملك يعتقد – ومعظم الشعب يوافقه على اعتقاده – بأن له الحق أن يعمل ما يريد بحيث أنه لا يحزن إلا إذا قلبت الأيام له ظهر المجن ولا يتأثر وجدانه بل إنه يأسف قليلاً يبد عليه في حفلته وهو على سرير الملك يكلم وارثه المحزون الذي دعي لويس الخامس عشر.

نعم كانت تلك الأعصر عصور عدم المساواة الاجتماعية المعتدلة بدون نقض ولا إبرام. فكان يوصف الفلاحون من حرج في مملكة فرنسا – التي هي ضرب من جدول الأيام الوطني – بأنهم (وإن كانوا أكثر عدد من غيرهم فليسوا مما يجب الاحتفال به بل لنا أن نقول فقط بأن منهم تجبى الضرائب وأنهم يزرعون الأرض ليغذوا المدن) وغليك أيضاً كيف كانوا يعرفون الأعمال الصناعية الميكانيكية بأنها سافلة ساقطة. وكان الفقراء وحدهم يزرحون تحت أعباء الحكومة بأسرها وهي تطلب من الناس ما لا يستطيعون أن يقوموا ببعضه وأرباب الطبقات المختلفة من الأعيان سامت الملوك برفاهيتها وهي تستند إليها ويستندون عليها وعاقبة ذلك سحق الفقير.

لكم أن تقيسوا ما قمنا به من الأعمال وما حدث من الفروق بين هذا العصر والعصر السالف وما أظن أحداً في صحة من عقله يزعم بأن عصرنا عصر سيئات. نعم إن الإصلاح لم يتم إذ لا نزال نرى الشقاء الطبيعي والأدبي والظلم مستحكماً. إنكم على صغر سنكم تعرفون تلك الولايات وكثير منكم يراها قريبة منه. فمن بيوت ضيقة رديئة تحوي عوامل الفناء والأسر الوحيدة العديدة التي بقيت في فرنسا تصفر ألوانها في الأكواخ الساكنة فيها وينهكها السكر الذي ربما نشأ من الشقاء وربما أزاده وأدامه وبذاء الكلام والحركات السفيهة. وأنكى من ذلك مشاهد أولئك المختشين الذين لا يفتأون يقلقون ويخافون الفاقة وهم على طيب قلوبهم يحيون منقطعة آمالهم. وبين السواد الأعظم وخيار الناس من الفرق العظيم الناتج من اختلاف التربية ما هو معروف موصوف. فالجهل في السواد الأعظم يكاد يكون عاماً يتناول صفات الناس وصفات الوطن.

إن ما يجب أن يعمل أيها الأولاد هو تتابع العمل فيما بدأنا به لنحرر المجتمع الفرنسوي ما أمكن من ضروب الشقاء والمظالم الإنسانية التي لم تستأصل شأفتها.

هذا العمل شاق ولا يخلو من مخاطر وذلك لأننا نحاول للمرة الأولى أن نرفع ما سقط ونقوم ما انحنى. وظاهر بأن الناس كلهم كيفما دارت الحال لا يقدرون على الاضطلاع بأعباء الزعامة وأنه يجب شيء من النظام أبداً وشيء من الترتيب وبديهي بان بعضهم يتساءلون عمن يقوم على هذا النظام وهذا الترتيب.

لا تعجب أن ترى كثيراً من الناس وفيهم أهل الحشمة والصلاح يضطربون ويقلقون وينكرون علينا ما نعد الأمة له ونحلم به من تحسين مستقبلنا. هذه الفئة من الناس هي التي تريد منا أن نرجع أفكار أجدادنا وأخلاقهم ولكني لا أرى بأي حق يقفون في النقطة الفلانية بدل النقطة الفلانية من الطريق المؤدية إلى الكهوف؟ التاريخ بأجمعه

طافح بأخبار الرجوع عن التقاليد وبعبارة ثانية ليست التقاليد إلا انتقالاً من الماضي للحاضر يأخذ منها الناس ما يريدون وما يستطيعون ويبذلون ما شاؤوا أو يخدمون أو فيقون ما أرادوا. وما تقليد يقف في زمن معين إلا أنه اشبه بحدود لا تتعدى.

نعم أنا مدرك ما هناك من مخاوف وأسمع أصوات الأهواء وأشعر بآهات الأحقاد. تذكر الصحف وقائع يومية محزنة وهناك الأحلام اللطيفة تعدنا بأمور جميلة. ولكن الإنسانية لم يهدأ لها بال قط. وما قط عاشت بدون شهوات وأحقاد وبدون أحلام ومطامع. أما أنا فإني معجب بما مر علي من أيام البؤس والسخط عجبي من الكون الذي يتم فيه هذا العمل العظيم في العالم.

ولو ذكرت لكم ما حدث هناك في تلك المقاطعة وحدها لطال بي المطال ولطالما أصابها ما أصاب باريز نفسها. اذكروا فيها أيام ١٨٤٨ والفتن اليومية التي حدثت عَلَى عهد لويز فيلي وأيام الثورة والتمرد عَلَى أيام الحكم القديم عهد لويس الرابع عشر وحركات القرون الوسطى الهائلة أما اليوم فليس فيها شيء من هذا يباكر الناس مضاجعهم فينامون ملء جفونهم آمنين مطمئنين.

أنا لا أتنبأ فلا أقول بأن الدهر لنا بالمرصاد عَلَى أنني لا أعتقد بالتقلبات الدائمة المخزنة فقد حدث نجاح عظيم في العقل العام. إن حق الكتابة والخطابة وحق الانتخاب قد أتت عَلَى حق الثورة. أيها الأصدقاء إنكم لن تنسوا أبداً كل قسوة يعد جناية في البلاد المتمتعة بروح الجمهورية.

يعلمونكم في المدرسة روح التكافل والتضامن وقاعدته أعن نفسك بنفسك وشعاره أعينوا بعضكم بعضاً وهذه القاعدة هي أساس الإخاء العلمي ثم تجيء بعد أعمال المحسنين الشريفة أي إرادة الأمة الفرنسوية لتحفظ الحياة من الأمراض التي قمددها والطفولية من العمال وسوء التربية والعمل من الحوادث والشيخوخة من الشقاء

وتعطي الضعيف واسطة للمناقشة مع القوي وتقسم العمال العامة والتكاليف الأميرية العسكرية على نصاب العدل. وما النظام الجمهوري إلا باحث عن العدل.

ألا فلنكبر دائرة الرجاء والآمال بحسن المآل وما الخير إلا ثمرة جهادنا العظيم وسرعته أكثر مما نتصور. واذكروا أن الطريق قصيرة بين معاصر لويس الرابع عشر وبيننا فالتاريخ ما خلا الفضائل التي قلتها لكم يحوي أجمل الفضائل ألا وهو تقوية الأمل اهـ.

ها ما قاله علامة الفرنسيس لطلبة بلاده ترجمناه لتتدبره هذه الأمة العربية لأن الأمم متشابه في تواريخها وأحوالها وليت كبار رجالنا يتنزلون تنازل كبار رجال الغرب إلى مخاطبة الناشئة بمثل هذا اللسان العذب والأفكار السديدة فلا خير إلا في التعليم ولا تعليم إلا للشبان رجال المستقبل.

الجغرافي الإدريسي وصاحب صقلية

من مبحث لأحمد باشا زكي

لما آلت إلى الملك رجار النورمندي مقاليد الأحكام في جزيرة صقلية رأى ما عليه المسلمون من الحضارة والعرفان ومكارم الأخلاق فجعل بطانته منهم وتقرب إليهم رغبة في رفع منا ملكه على ما جرت سنة الإسلام وقد تولع بعلم الجغرافيا وبحث في ممالكه عن أساطينه في تلك الأيام. فأرشده المسلمون إلى شريف من سلالة الأدارسة الذين تملكوا مراكش وانتهى إليهم الحكم في مالقة وحوزاها بجنوب الأندلس ثم دالت دولتهم وبقي نفر منهم كانوا ملوك العلماء وإن كانوا أضاعوا التاج والصولجان وفقدوا الحكومة والسلطان.

ذلك هو الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد عبد الله بن إدريس المعروف باسم الشريف الإدريسي.